• اعلام القصة في الأدب الانجليزي الحديث •

٤- د. هـ. لورانس

عبقري ولكن..

د. طه محمود طه

تمثل ثورة هربرت لورنس في القصة الانجليزية الحديثة أخطر ثورة يمكن لكاتب أن يقوم بها في قصصه ضد العقل والمنطق والتقاليد وهذه الثورة في أسلوب قصصه وموضوعها تماثل في أهميتها الثورة على طريقة السرد التي قامت بها فرجينيا وولف ودوروثي ريتشاردسون وجيمس جويس في القصة واليوت وايزرا باوند في الشعر . ويعتبر لورنس ، رائد الثورة على العقل ، من عباقرة القصة في القرن العشرين وسيظل اسمه خالدا وسيثير الجدل والنقاش حول شخصيته وقصصه . فقد تعرض لمدح شديد ونقد لاذع لأسباب قد لا تتعلق في بعض الأحيان بمكانته الأدبية بل لأنه أصبح المتكلم بلسان الذين ثاروا على حضارة القرن العشرين الميكانيكية . وربما نجد فيما كتبه في المستقبل ، كما وجدنا في كتابات بليك وجيرارد مانلي هوبكنز ، تمثيلا للقوى الخفية التي تشكل وتسيطر على انسان القرن العشرين . وربما كان لورنس أول من نادى بتركيب فلسفي عملي يمكن الجسد والروح ، والرجل والمرأة ، من العيش في توافق وانسجام ، وربما ننظر اليه على أنه ممثل الرومانتيكية الجديدة في الأدب في احتكاكها واتصالها بالأرض والطبيعة وآخر من نعى ملذات الحياة البسيطة التي تعمل على اسقاطها حياة المدن والآلة .

وقد كانت فلسفة شوبنهور ونيتشه رائجة في عصره ، ولها قطعا أثرها في تفكيره فقد شجع هؤلاء المفكرون الديناميون ايمانه بالعفوية والفردية . وربما كان لزوجته الالمانية أثرها في ايمانه بميتافيزيقا « أوتو فينجر » الذي كان كتابه « الجنس والشخصية » مرجعا في العشر سنوات الأولى من القرن العشرين ، فتحليله للعلاقات البيولوجية والنفسية والميتافيزيقية بين الجنسين كان له أثر فعال في فلسفة لورنس الحيوية . وأهم من العوامل الفكرية والفلسفية التي ساعدته في تصميم وتقييم ايمانه تلك العوامل الشخصية ، فقد كان للبيئة التي نشأ فيها لورنس أثرها في حبه على التعبير عن رؤاه وتجاربه بطريقة غريبة مبهمة .

لقد عاش لورنس معظم حياته يتصارع مع الأفكار والعواطف التي تسيطر عليه والتي كانت تبدو مرات متعبة دائما فلم تترك له وقتا كافيا لكي يتمكن من ترتيبها ترتيبا فنيا منظما في قصصه وفي احدى رسائله يقول انه كان غالبا ما يبدأ في كتابة قصة جديدة قبل أن ينتهي من الأولى ، وحتى عندما كان يكتب قصة جديدة كان لا يدرى عن خاتمتها شيئا . فقد كانت حيويته وعبقريته أكثر من عبقرية فورستر أو ألدوس هكسلي ، وفاق احساسه بالحياة والعواطف معظم معاصريه ووجد لها متنفسا في الشعر أيضا .

لقد كان لورنس كاتبا دائبا فقصصه القصيرة وحدها تملأ عدة مجلدات وله كتب رحلات ومقالات ومسرحيات كما كتب في علم النفس . وقد يكون لورنس قد بعثر ثراءه في كل اتجاه كما يقول هكسلي عنه ولم يستطع أن يضفي على قصصه نظاما فنيا ويقدمها لنا في شكل معقول ، فقد استمر الصراع بين لورنس الفنان ولورنس الانسان حتى وفاته . وقد دمغ هذا الصراع وهذه الزوابع والعواطف

التي كانت تهز كيانه الى الشعر والرسم المتواصل وخاصة بعد عام ١٩١٩ ــ فقد حاول أن يغادر انجلترا دون نجاح اثناء الحرب العالمية الاولى ــ الى صقلية واستراليا والمكسيك ــ وقد اكتسب لورنس الكثير من التجارب اثناء رحلاته هذه واحس وحقق حضارات مختلفة ولكنه لم ينجح في الوصول الى ما كان يصبو اليه حتى وهو على فراش الموت في عام ١٩٣

فلسفة لورنس :

كتب لورنس في احدى رسائله يقول : « ان الاختلاف بين الناس ليس اختلافا طبقيا ، ولكنه اختلاف في النفوس . فمن الطبقة المتوسطة نحصل الانسان على الافكار فقط ، ومن الناس العاديين على الحياة ذاتها ، على الدفء » والغاية من الحياة ذاتها عند لورنس هي وصول كل فرد الى الاكتمال والوجود هو الغرض الاساسي في الحياة وليست المعرفة . والبحث في قصصه من « الطاووس الابيض » حتى « الرجل الذي مات » هو بحث عن تعريف لطبيعة الانسان ثم حثه على الازدهار والنمو والكمال . وهذا هو الهدف الذي كان دائما يسعى اليه ، وكل ما عدا ذلك كان غير ذي بال ــ الطبيعة والأشياء والممتلكات ــ لكنها لا تعني شيئا بالنسبة للفرد ولكنها تساعد الانسان على الاكتمال ومعرفة النفس . واذا أراد الفرد ان يكتمل فلابد له بطريقة او اخرى أن يتعلم التعاطف والاتصال بالآخرين . فاللاشعور عند الفرد ، كما كتب لورنس في هجومه على فرويد في كتابه « التحليل النفسي واللاشعور » ، يتطلب عالما خارجيا لكي يتمكن الفرد من تنمية ذاته ، وبالتالي عمليا أن تنطلق من فكرة تجريد الذات ، ويجب أن يكون للذات مجال مادي تتحرك فيه ولابد ان يكون هناك فرد آخر لكي تتحقق هذه العلاقة . ولهذا أطلق هكسلي على فلسفة لورنس هذه : « المادية الصوفية » ويطلق عليها لورنس « الاستقطاب » ، فالفرد ينمو ويكتمل عن طريق عملية مد وجزر استقطابية ، عن طريق الحركة المستمرة المتغيرة بين الفرد وفرد آخر ، وهي عملية تجاذب وتنافر مستمرة بين قطب سالب وقطب موجب . وفي محاولتنا للوصول الى هذا التعادل نجد ان العقل اصبح معطلا ، فهو لا تأثير ولا مؤثر ، ونجد أيضا في طريق مسدود لان الوعي لا يعتبر هدفا ، فهو وسيلة تساعدنا على الاتصال بالعالم الخارجي فقط أو وسيلة للوصول الى ما يطلق عليه لورنس « الاكتمال التلقائي الخلاق للفرد » . والعقل في فلسفة لورنس ليس مرشدا او هاديا ولهذا يجب علينا ان نكون على علم بالطرق العديدة التي عبر بها لورنس عن قصور العقل ــ السخرية في قصته « ابناء وعشاق » ، والكاريكاتورية والحيوانات الجامحة في « قوس قزح » والثلج الابيض الناصع والتماثيل الافريقية الحسية والمرأة في « نساء عاشقات » والديك الذي يحاول التحرر والانطلاق والهروب في قصته القصيرة « الرجل الذي مات » وهذه الظواهر تعيش حياتها ويضعها لورنس في قصصه وترد علاقتها بشخص من شخوص القصة ثم بعد ذلك يعادلها بالقصة كلها . وعندما يتم له هذا نشعر بوجود عالم آخر اعمق واقوى من أي عالم يستطيع العقل أن يصوره أو يدركه وتلقي هذه الانعكاسات كلما ظهر هذا الرمز في القصة . وتلعب هذه الرموز دورا هاما وحساسا فاصلا تتسلل بواسطته من العقل الناطق واللاشعور ، من تلك الظلمات العميقة والعوالم الخفية التي يعتقد لورنس انها المكان الوحيد الحقيقي الذي يعيش فيه الانسان والتي يجب الوصول اليها اذا كان لهذا الاستقطاب أن يحدث بين فرد وآخر . ويقيس لورنس اكتمال الفرد بقدرته على الاندماج باللاشعور الأولي مع فرد آخر وبهذا اكتمل « وحدانيته » ويتحقق وجوده . فالحب الحقيقي عنده نسيج من استقطاب يدخل فيه الفرد في حالة مد وجزر مع فرد آخر ويصبح الخلاق بعده على كل مستويات الحياة .

ومن الواضح أن لورنس لم يكن يتكلم من طبيعة جديدة ، لقد كان فورستر سابقا في فلسفة مماثلة لا دخل للعقل الواعي فيها كمحرك لطاقة حيوية وحضارية هائلة وشخوص فورستر الانسانية المرهفة الحس دليل على ذلك . فلدينا مثلا مسز ولكوكس في « هواردز اند » ومسز مور في « رحلة الى الهند » . ولكن لورنس تفوق فورستر وابرز حتى بدون بهذا التعاطف والاتجاه

في السمو والعمق — وفي القوة التي تصطبغ بها شخصياته ومواقفه وفي مقدرته على اثارة تلك القوى الغامضة في جوهر الأشياء وبسط عضبه بطريقة سحرية شاعرية وخلق جو مناسب لها . ومن هذه المواقف ذلك المنظر الذي ترقص فيه « انا » عارية وهي فرحة بالحياة التي في أحشائها ، والخيول التي تهاجم « يورسولا » في « قوس قزح » ، والمنظر الذي ترقص فيه « جودرون » أمام الأبقار ، وعندما يحاول « بيركين » أن يحطم عرض القمر الفضي المنعكس على صفحة مياه البحيرة الهادئة بينما تراقبه يورسولا في « نساء عاشقات » .

وعندما فرغ لورنس من كتابة قصصه الأولى كان اهتمامه بالعالم الخارجي قد فتر وبدأ يوجه اهتمامه الى جوهره ، كان يحاول ، كما تقول كاثرين كارزويل أن يصل الى ما دون نهر الحياة ذاته . ولهذا قل اهتمامه في قصصه بحياة شخوصه في العالم المادي من حولهم وأخذ يستكشف ما يدور داخل عوالمهم العاطفية والروحية وعندما ضعف قبضه على شخوصه اخذ يتصارع معهم وخاصة من كان منهم يرفض الامتثال لعواطفه ويلقي بنفسه في دوامة الحياة المادية من حوله أمثال جيرالد في « نساء عاشقات » وسكربنسكي في « قوس قزح » . ومن هنا نشأ التشابه الكبير في قصصه بين شخصياته فلا فوارق واضحة بين شخصية وأخرى ومعظمها تشبه لورنس الى حد ما .

وقد دفعت عبقرية لورنس وقدرته على التعبير عن حالات نفسية جديدة الكثيرين الى اعتباره عبقريا فذا ، وربما ذهبوا ، في تقييم أعماله الى أبعد من ذلك ، فهم يضعونه في قمة القصاصين الانجليز أو على رأسهم جميعا . ولكن هذا الاعتقاد كما يقول « دافيد ديتشيس » مبني على التغاضي عن نقاط الضعف في قصصه وقصور نظرته أحيانا . فقد طور لورنس استعمال القصة وجعلها أداة لا لوصف مجتمعه وعصره وانتقاده واحتجاجها بل لوصف حالات شعورية عميقة وأصبحت القصة سجلا لتلك الرؤى القوية الأصيلة للحياة وعرضا رمزيا شاعريا للحقائق الكامنة في جوهر الفرد وفي العلاقات الشخصية . ولكننا نجد الى جانب هذه اللمحات القوية وهذه الهبة الرائعة لوصف التجارب الخاصة والتعبير الرمزي قتامة مربكة وتكرارا مملا مفعوما لرموز معينة تتسلط على لورنس من آن لآخر دون أن يكون لها اتصال عضوي بالقصة ذاتها . فماذا مثلا يعني لورنس بالفصل الخامس عشر في قصته « قوس قزح » ذلك الفصل الذي يطلق عليه « مرارة النشوة » ؟ ففي هذا الفصل تمر يورسولا وسكربنسكي بأزمة عاطفية تنهي تقريبا العلاقة التي بينهما . وتحاول يورسولا أن تهب نفسها لسكربنسكي وتنظر الى القمر بأشعته الفضية وتقبل على معانقة سكربنسكي في عنف ولكنها تسيطر على عواطفها وتنساب دمعة من عينيها وهي تنظر الى القمر ، ويتراجع سكربنسكي في خوف . فقد أدرك أنها « أبعد من الأموات » . وعندما تقاطعها فجأة بعد تساؤلها « لماذا تتخلين عني ؟ » ترد عليه « لقد تخليت أنت عني — لقد تركنا بعضنا » . والقارىء الذي يتتبع حوادث القصة بصبر وضجر سيجد حتما خيبة أمل عندما يصل الى هذا الفصل . ويقابل نفس الازمة في قصة « نساء عاشقات » عندما تصل الى الفصل الأخير وبعد موت صديق بيركين نقرأ الحوار التالي بين يورسولا وبيركين :

— « هل كنت في حاجة الى جيرالد ؟ » سألته ذات ليلة .

— نعم ، قال .

— ألا تجد في ما يكفيك ؟ سألته .

— كلا ، قال . تكفيني فيما يتعلق بالمرأة . فأنت كل النساء بالنسبة لي . ولكني كنت أود رجلا صديقا ، دائما ، كما أصبحت العلاقة بيني وبينك .

— ولماذا لا تجد في الكفاية ؟ سألته . اني أجد فيك الكفاية ولا أريد أحدا سواك . ولماذا لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لك ؟ »

— اذا كنت لي كان في استطاعتي أن أعيش حياتي كلها دون حاجة الى انسان آخر ، الى أي صداقة

خالصـــة ... ولـكن لكي تكون الحيــاة كاملة ، حياة سعيدة حقا ، فاني كنت اريد ارتباطا دائمـا مع رجـــل اصبحنـــا ... نوعا آخر من الحب .

— اني لا أصدق هذا ، قالت ... ان هناك هذا ، نظرية ، انحراف

— حسنا ...

— لا تستطيع أن تحصل على نوعين من الحب ... ألا بد من هذا ؟ .

— يبدو أن هذا غير ممكن ، قال ... ومع ذلك أود لو كان من الممكن

— لا يمكنك هذا ، لانه سيكون باطلا ، مستحيلا ، قالت .

— انا لا أومن بهذا ، أجابها .

ونحن لا نستطيع ان نشير له هذه الاخطاء لأنها تقصر الى عقلنا عند الحكم على أعماله وتقييمها ... وكتاب « وريتشارد الدجيون » فيه نعرض عليها الرأى السائد في أعمال لورنس ، وعنوان الكتاب « صورة عبقرى ولكن ... » ويقول المؤلف في مقدمته ... انى اطلق على هذا الكتاب « صورة عبقرى ولكن ... » لسببين ... الأول وهو لان الكتاب صورة وليس سيرة مفصلة كاملة كان من الممكن أن تصبح أطول من هذا مرة او مرتين لو وجدت المادة ، والسبب الثاني هو انني لاحظت عند فحص الكتب والمحاضرات التي كتبت عن لورنس انه في مكان منها او آخر استعمل كل ناقد تقريبا التعبير التالي ... « كان لورنس بالطبع رجلا عبقريا ... ولكن ... » وكان اهتمامهم بكلمة « ولكن » أكثر من اهتمامهم بكلمة « عبقرى » وقد الصق كلمة « عبقرى » بلورنس دائما وذكرها أول ناقد لأعماله وهو « فورد مادوكس هوفر » واخر المقالات الأدبية التى كانت تكتب عنه بعد وفاته عندما اطلقت عليه « العبقرى المحرق في العصر » واذا كانت العبقرية تعنى مجرد تمتع الفرد بموهبة خلاقة فلا جدال فى ان لورنس كان يتمتع بموهبة والمعة خلاقة كما تشهد بذلك المقدمة التي كتبها الدوس هكسلى لرسائل لورنس والتى يقول فيها لقد كانت هبة لورنس الخاصة هى حساسيته الفائقة لما يطلق عليه الشاعر وردزورث « الحالات الغامضة فى الوجود » .

فقد كان دائما يشعر بوجود سر غامض في الكون ، وكان هذا السر دائمـــا سرا الهيا .. وهذه الحســاسية الفائقة كان يصاحبها مقدرة عظيمة او قوة خـــارقة في التعبير الأدبي عن هذه الحالات المباشرة من التجارب . لقد كان لورنس ينظـــر الى الكون بما فيه بعيني انسان كان على وشك الموت ثم بعث من جديد واخذ ينظر الى الكون من حوله بنوع من التامل والبهجة والسرور . وكانت الحياة كلها بالنسبة له فترة نقاهة مستمرة ، وفي كل يوم من حياته كان يشعر وكانه قد شفي من مرض عضال . وكان قلمه وحديثه يعكسان ما كان يراه بعينيه ، فقد كان مثلا يستطيع ، عن طريق التجربة الذاتية الخاصة ، ان يصف لنا احساس الانســـان اذا ما اصبح شجرة او تحول الى زنبقة او موجه أو قمر ، كان في استطاعته ان يدخل تحت جلد حيوان ما ويشرح لنا ما يحس به الحيوان في تفاصيل مقنعه » . ويقــول هكسلي ، وقد كان صديقا للورنس ، ان لورنس كان لا يهتم كمعظم الناس والأدباء بالشكل بل بالجوهر ، لم يكن مثلا يهتم بالفحم او بالماس بل بالكربون ذاته الذي يدخل في تركيب كليهما . وكان تحليله لهذه التجارب الذاتيه لا يتم عن طريق العلم او العقل ، بل كان يتم عن طريق عملية حدسي مباشره ، لقد كان مثلا في استطاعته ان « يشـــعر » و « يحس » بوجود الكربون في الفحم والماس وان « يتذوق » الايدروجين والاكسجين في الماء الذى يشربه .

وقد استمر انتاج لورنس الادبى العظيم عشرين عاما بالرغم من مرضه ، وكان مجيئه ، كما يقول هكسلى ، فى الاسترخاء والاستجمام ، ولكن هذه انصراف لم تكن فترات كسل أو خمول ... واذا اطلقنا

على لورنس لقب « عبقري » ، فاننا نعني بهذا ذلك الشعور الذي يولد وله احساس فائق بالحياة ، او ادراك حسي مرهف في نوعه واستعداد فطري لنوع معين من الشعور الانساني . وربما نسأل الآن : لماذا نطلق على لورنس لقب « عبقري » ؟ ونعتقد أن السبب الرئيسي الذي يستحق من اجله لورنس الدراسة والتمجيد هو انه قد نجح في توسيع وتعميق دائرة وعينا . وفي هذه الحالة يصبح من الصعب علينا أن نتكلم عن التكنيك في قصصه أو عن طريقته في عرض مادته ، أو عن اسلوبه أو حتى نقد نظرته ، لاننا حين نقرأ قصصه نشعر أننا نتعلم شيئا عن هذه « الحالات الغامضة في الوجود » لأول مرة ، شيئا لا مثيل له في القصص الانجليزي من قبل . وحينئذ سنعرف بعبقريته ولكنا نستطيع أيضا ، كما فعل ت . س . اليوت في عام ١٩٢٤ ، أن نتهمه بالالحاد ونطلق على قصصه وفلسفته نواحي خلقية معينة ، ولكنا ، كاليوت أيضا (في ١٩٥١) قد نغير رأينا فيها بعد . فقصص لورنس ، كمعظم القصص الأخرى ، تعلق على تجارب انسانية معينة ، ولكنها تختلف عن القصص الاخرى في أنها كشف جديد متجدد وبحث في فهم جديد . وربما وجدنا في قصصه تكرارا مملا وتعقيدا في التفاصيل وتناقضا ونفورا من المسيحية وعلما زائفا ولكننا نجد فيها قوة وذكاء واخلاصا وتعمقا في النفس البشرية قلما حققه كاتب من قبله . وقد كان لورنس يعتبر دائما نفسه كقصصي ويفخر بها :

« انني ارفض كلية أن أعتبر نفسي روحا أو جسدا او عقلا أو ذكاء او مخا أو جهازا عصبيا او مجموعة من الغدد أو جزءا من دون تلك الاجزاء التي تكونني . فالكل أعظم من الجزء . ولذلك فانا ، الانسان الحي ، أعظم من روحي ومن نفسي ومن جسدي ومن عقلي ومن وعيي ومن أي شيء آخر يكون جزءا مني . اني انسان وحي ، اني انسان حي ، وأنوي بقدر ما استطيع أن أظل انسانا حيا . وانا قصصي لهذا السبب . وأعتبر نفسي ، لاني قصصي ، أفضل من القديس او العالم او الفيلسوف او الشاعر ، فهم اساتذة متخصصون في أجزاء مختلفة من الانسان الحي ، ولكنهم لا يصلون الى الكل ابدا . »

حياته وفنه القصصي :

ولد لورنس في ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٥ في ايستوود على بعد تسعة أميال من نوتنجهام وكان الطفل الرابع لأحد عمال المناجم . وكان الفحم يستخرج من باطن الأرض في هذا المكان منذ قرون ، ولكن طريقة استخراجه كانت بدائية حتى عام ١٨٤٠ أي قبل مولد لورنس بحوالي أربعين عاما وكان عمال المناجم يسكنون اكواخا من القش والطوب ويعملون في جوانب التلال والجبال وكانت الحمير تجر الفحم الذي يخرج من باطن الأرض وتنقله الى المخازن . ويصف لورنس هذه الفترة في قصته « أبناء وعشاق » . وبعد عام ١٨٥٠ بدأ المنظر يتغير وادخلت وسائل حديثة عندما وصل اصحاب رؤوس الاموال واستخدمت السكك الحديدية واخذت مناجم الفحم تظهر وسط الحقول الخضراء والمراعي والغابات . واختفت الاكواخ المسقفة بالقش والطوب وحلت محلها صفوف من المساكن المربعة قام ببنائها اصحاب شركات استخراج الفحم . واخترقت الطرق وخطوط السكك الحديدية تشق الأرض الزراعية الخضراء والوديان والغابات . وكانت الارض ما زالت أرضا زراعية جميلة في شرقها غابة شيروود تظللها أشجار البلوط وفي الشمال الغربي منها جبال داربي شاير . وكانت المناجم في بادئ الأمر شيئا جديدا وغريبا وسط المناظر الطبيعية الجميلة . وظلت ايستوود نفسها تحتفظ بطابعها الريفي الجميل ولم تتحول كلها الى مدينة صناعية وكانت تتمتع بموقع ممتاز فوق ربوة عالية ومعظم منازلها كانت تطل على الأرض الفسيحة المترامية الأطراف . وقد ظل أهل ايستوود بعيدين عن المجتمع الصناعي في نوتنجهام أو لندن أو ليفربول ولا يشبهون سكان الأحياء الفقيرة في أنحاء انجلترا ، كانوا يسيرون وسط الحقول ليصلوا الى المناجم ، وفي اثناء ذهابهم للعمل أو عودتهم منه يتوقفون ليجمعوا شيئا من عيش الغراب أو يقتنصوا أرنبا بريا للعشاء مثلهم في ذلك مثل الفلاحين العاديين . وبالاضافة الى ارتباطهم بالارض وعملهم في المناجم كانوا صناعا مهرة يفخرون بما تصنعه أيديهم ، ولم تهددهم البطالة

الا في النادر . وكان في استطاعة جون آرثر لورنس ، والد د . هـ . لورنس ، أن يحصل على أجر أسبوعي قدره خمس جنيهات (ومن سخريات القدر أن لورنس نفسه وبعد عشرين عاما كان يحصل على أقل من جنيهين في الأسبوع من مدرسة في لندن بالرغم من أنه كان مدرسا مؤهلا) ، وكان هذا يعتبر مرتبا كبيرا .

ولم تكن عمال المناجم ، كما يقول لورنس ، يعيشون كثيرا بأجورهم ، فقد كانوا يعيشون عيشة غريزية مطربة تبعث فيهم روح الصداقة والأخوة والبساطة وهم يعملون نصف عراة في باطن الأرض وفي الكهوف المظلمة . وكانوا يواصلون هذه الصداقة والأخوة عندما يخرجون من المناجم ويجتمعون في المشارب والحانات . لقد كانوا يعيشون في عالم مظلم أسود عاش معظم وقتهم ، فقد كانوا يتركون منازلهم في وضح النهار ، بعيدين عن عالم الحقائق والمعاملات المالية والمسئوليات المنزلية . وما كان يهمهم هو توفير أسباب الراحة لأفراد أسرهم ، ولكن هذه الحياة المرئية دفعت الزوجات الى اعتبارهم سكان عالم آخر غريب وفي النهاية أخذن ينظرن اليهم على أنهم دخلاء .

ولم يستطع لورنس أبدا أن يتخلص من ظلام المناجم ولونها الأسود القاتم وظلت هذه الصورة تتسلط على عقله ووجدانه . فقد كان الفحم بالنسبة اليه رمزا وسرا غامضا يوحي اليه بالغموض الكامن في اللاشعور الذي يزخر بالرغبات الذاتية . وفي قصصه يظهر الظلام والغموض بشكل واضح في اثارته لحاسة اللمس وفي محاولته لوصف التجارب الذاتية التي تظهر من « اللاشعور المظلم » ومن مستويات أخرى « مظلمة » ؛ تلك القوى والدوافع التي تعمل في خفاء وفيما تحت مستوى الوعي . فقد كان لورنس يحس أن الفحم قد ابتلع والده ، وأن الوالد قد أصبح فريسة ، مخلوقا شاذا يعيش على وجه الأرض لفترات قصيرة ثم يعود فيغوص في باطنها .

وكان لهذا الصراع بين والد لورنس ووالدته أثره الكبير في حياته العاطفية وحياته كفنان . فقد كان والده رجلا أميا بدأ عمله في المناجم وهو في سن العاشرة ، وكان يجد صعوبة في كتابة اسمه أو قراءة بعض كلمات في جريدة يومية . وكان نشاطه محددا بعمله في الفحم واصلاحه لبعض أدوات منزله والسير لمسافات طويلة على الأقدام مع أصدقائه والتسامر في المشارب . أما الوالدة فقد كانت تتمتع بقسط أكبر من التعليم ، فقد تعلمت في مدرسة خاصة ثم أصبحت فيما بعد مدرسة بنفس المدرسة وكانت تقرأ كثيرا وتكتب الشعر وتحب الأفكار والمناقشات الفلسفية والدينية وتتوق روحها في الاحساس الرهيف والتهذيب الخلقي . وقد أصرت الوالدة منذ البداية على أن يحصل أولادها على قسط أكبر من التعليم ، ولولا طموحها لما قدر للورنس أن يحصل على هذا القسط من التعليم الذي مهد له السبيل لأن يكون كاتبا . ومهما كانت ثورة لورنس فيما بعد على التعليم وحياة الذهن والأفكار المجردة ، فلا أحد يستطيع أن ينكر فائدة التعليم ، ولا أحد يستطيع أن يكون أديبا خصبا مثل لورنس دون ثقافة ، فلا تستطيع الغريزة وحدها ولا الحياة وحدها أن تنتج أدبا واضحا ، ومن ناحية أخرى كان لوالده أثره أيضا ، فلولا حبه للحياة ذاتها ببساطتها الحسية ودفئها لما قدر للورنس أن يكون لورنس الذي نعرفه ؛ ولربما كان أثر طموح والدته أن أصبح لورنس رجلا مثقفا ماديا . وكان لورنس يرى الأشياء وهو شاب بعيني والدته ولكنه في المدى الطويل أخذ يعجب بوالده وبحياته الغريزية التلقائية . وفي قصته الأولى « الطاووس الأبيض » يظهر تعلقه واعجابه بعالم أمه ؛ وفي قصته الأخيرة « عشيق الليدي تشاترلي » نراه أبعد ما يكون عن هذا العالم .

وبعد أن عمل لورنس في شركة لانتاج المعدات الجراحية في نوتنجهام دخل مدرسة ايستوود ثم التحق بجامعة نوتنجهام وتخرج كمدرس في عام ١٩٠٨ ، وقضى أربع سنوات قضاها في التدريس ونشر فيها قصصا قصيرة عديدة وعددا من القصائد وقصتي « الطاووس الأبيض » ١٩١١ و « المتعدي » ١٩١٢ ، ثم فر الى ألمانيا ومعه « فريدا » زوجة مدرسه الفرنسي وكانت سيدة ألمانية وأما لثلاث أطفال . وكان لوفاة والدته أثره في تحرر لورنس من كل الصلات التي تربطه بانجلترا التي تركها ليبدأ رحلاته الطويلة مع « فريدا » ، تلك الرحلات التي استمرت حتى وفاته في عام ١٩٣٠ . وكان لورنس يعود

الى انجلترا لمراقبة مصيره كلما عاوده الحنين الى وطنه اذ كانت رحلاته الى ايطاليا ومنها واسبانيا تستغرق كل وقته . وفي المكسيك الجديدة استقر لفترة وتزوج « فريدا » .

وأثناء الحرب العالمية الأولى لم يستطع لورنس في العيش لأن صحته كانت مصابة بمرض السل الذي بدأ يداهمه . وفي عام ١٩١٥ حاول أن يقنع فريقا من الكتاب والمفكرين من بينهم الدوس هكسلي وبرتراند رسل ومارك جيرتلر ومايكل آرلين ودوروثي برت ليصنعوا فردوسا أرضيا في فلوريدا ويكون شعار هذه الجماعة « الشقاء » وتكون مهمتها تجديد العالم كله وبعثه من جديد في صورة أحسن مما كان عليه . وفشلت الفكرة ولم يتحقق حلم لورنس لأن برتراند رسل ضايق لورنس وأفكاره ، فقد اطلق لورنس لحيته وبدأ في صورة « مسيح جديد » تملأ عقله أفكار بعيدة الاحتمال عن ولادة الانسان مرة ثانية عن طريق ما كان يطلق عليه « وحي الدم » أو « فلسفة الدم المريرة » . اما الدوس هكسلي فلم يتأثر كثيرا بأفكار لورنس لأن هكسلي في ذلك الوقت ، كما يقول ، كان « رجلا حريصا » وكان حديث لورنس دائما يدور حول الأشياء المبهمة والقاتمة المحتجبة . وعلاه الفلسفة الطبيعية المريرة تنثر فيما يحوله لورنس في كل من « قوس قزح » ١٩١٥ و « نساء عاشقات » ١٩٢٠ وفي [illegible] نعمبه « نساء عاشقات » ، مجدلات ، بيركين ، [illegible] لورنس وممثل لنا فلسفة لورنس في الاستقطاب والتكامل كما تزخر القصة بمواقف درامية ورموز لها مغزاها .

وقضى لورنس سنوات الحرب العالمية الأولى في انجلترا شبه سجين فيها فقد كانت السلطات تراقبه وتشك في نشاطه وكانت الحكومة تعتبره محركا للاضطرابات وجاسوسا ألمانيا . وبعد انتهاء الحرب بدأ لورنس وفريدا سلسلة من الرحلات بنوع من الجنون — من ايطاليا الى صقلية ، ثم الى سردينيا وبعدها الى ايطاليا ثم الى سيلان ومنها الى استراليا والمكسيك [illegible] وكان يرغب في زيارة روسيا ولكن حالت الظروف دون ذلك . وفي عام ١٩٢٢ عاد لورنس الى انجلترا مرة ثانية ولا زالت فكرة فردوسه الأرضي « رانانيم » تراوده ، ثم بدأ سلسلة رحلاته مرة ثانية مسافرا الى الولايات المتحدة والمكسيك ثم انجلترا ، وبعد ذلك الى ايطاليا وكابري وفلورنس وبادن بادن واسبانيا واستراليا [illegible] وسويسرا وفرنسا وبافاريا واخيرا في مصحة في « فنس » في جنوب فرنسا حيث توفي بمرض السل . وكما يقول هكسلي في مقدمته لرسائل لورنس :

« لقد كان احساس لورنس بالعزلة هو الذي دفعه للتجول حول الأرض ، وكانت رحلاته هروبا وتعقبا في آن واحد . كان يهرب من مجتمع يستطيع أن يسمى أمه ، من عالم لا يكون الزمان فيه ذاتها ولا تكون العزلة التامة فيه قد أصبحت الحياة . تعقبا وفي الوقت ذاته هروبا من الشقاء والشرور في المجتمع الذي ولد فيه ، ذلك المجتمع الذي كان يشعر تجاهه بالمسئولية رغم احساسه العميق بضرورة انفصال الفنان عنه . ولكن بحثه كان غير مثمر كما كان هروبه لا طائل تحته . وفي حالة من الناس التي يصحبه وفي أعماق الماضي المحيط به ؛ وفي الليل الأسود لتلك « الغربة » التي تعصر التجربة الحسية جوهرها ورمزها . ولقد أدى انعزال لورنس النفسي واغترابه الى طلبه العزلة جسديا من الغربة ؛ ولقد كان لهذه العزلة الجسدية رد فعل في أفكاره . »

ولم يستقر لورنس على حال خلال هذه السنوات وكان لتجاربه المتعددة خلال رحلاته الأثر في تعميق نظرته للحياة وتطور طريقته في الابداع والعرض في قصصه . وقد كان كل شيء يراه لورنس أو يسمعه أو يحس به مادة تغذي كتبه محاولا اقناع الانسانية بضرورة المولد الجديد عن طريق احساسها بما كان يطلق عليه « الحس الأدمي من الوعي » ؛ هذا الجزء الذي لا يستطيع العقل أن يصل اليه . فقد كان لورنس يؤمن بأن مصائب الانسان في العصر الحديث ترجع الى انه يسمو ويطور من خصره الى أعلى ، تاركا ما دون الحزام كما هو أي يعنى بالعقل على حساب الجسد . وكان لورنس يؤمن بأن الانسان

بمثاليه الراهنة لا يتمتع بكل طاقاته ولا يعي كل امكانياته ، وانه من الضروري للانسان لكي يعطي بهذا الميلاد الجديد من أن يموت كالسقاء ليولد ويبعث من جديد من رماده بعد هذا التطهير . وفي هذا النوع الجديد من الحياه وجد لورنس صوره للرسالة التي شكلت ولونت كل ما كتب تقريبا ، حتى كتبه في النقد والرحلات متصلة بهذه الرسالة التي سيطرت عليه حتى وفاته

ان رحلات لورنس المتواصلة ومحاولاته للاحتكاك بحضارات مختلفه وممارسة الحياه على مستويات عديدة تشير الى بحثــه الدائب عن صوره كان يراوده . فلقــد كان لورنس مثاليا مغرقا في مثاليته ، لذلك لم يرض بما تقدمه له الحياه المـــادية وكان دائما يطلب الكمال في كل شيء حتى أنه لم يقبل أنصاف الحلول التي قد تؤدي في المدى الطويل الى مثله العليـــا . ولهـــذا نقل بحوثه في العالم الميكروكوزمي الفردي الى ما دون المستوى الانســاني ، عالم الذره والالكترون ، عالم الغرائز والالهام والدوافع الجنسية الخفيـــه . ومضى في طريق البحث يحلل بدقة جذور الرغبة الجنســية حتى كاد أن يصل الى منبع الوجود والحياة . وظل شيطانه يطارده حتى آخر أيام حياته ، وظلت حيويته تتدفق منه بحرارة حتى عندما فقد الأطباء الأمل في انقاذه .

ان قصص لورنس لا تعتبر ترجمة ذاتية فحسب بل هي وثائق تسجل التفاصيل الطبيعية والبيئية حوله ، وتظهر معظم أصدقائه في قصصه بشكل أو آخر وأهم ما تتميز به قصصه هو قوه أسلوبه في الوصف ودقة احساسه . ويجب علينا منذ البداية وقبل أن نستعرض بعض قصصه أن نقول أن لورنس لم يكن رجلا عبقريا ، أو رجلا رائعا ، أو أحيانا رجلا محبوبا ، أو واعظا ، أو مصلحا اجتماعيا فحسب ، بل كان كاتبا عظيما .

أعمالــه :

كثيرا ما كان للورنس مع السلطات البريطانية مشاكل لا تنحصر حول الرقابة على كتبه ولوحاته . فقد صادرت الرقابة « قوس قزح » و « عشيق الليدي تشاترلي » من النشر ، وهاجم رجال اسكتلنديارد معرضا للوحاته في مدينة لندن وصادروا اللوحات . ولم تثن هذه المشاكل والصعاب لورنس عن عزمه وظل يكتب بصبر واصرار . وبالاضافة الى عدد كبير من القصص القصيرة أهمها « الرجل الذي مات » ، والقصائد والرسائل والمقالات النقدية فله عدد آخر كبير من القصص : الطاووس الأبيض ١٩١١ — أبناء وعشاق ١٩١٣ — قوس قزح ١٩١٥ — نساء عاشقات ١٩٢٠ — الفتاه المفقوده ١٩٢٠ — الكنغر ١٩٢٣ — عشيق الليدي تشاترلي ١٩٢٨ — الديك الهارب ١٩٢٩ وقد نشرت بعد ذلك بعنوان « الرجل الذي مات » . والقارىء الذي يهتم بقصص لورنس لابد أن يقرأ له « التحليل النفسي واللاشعور » ١٩٢١ و « فانتازيا اللاشعور » ١٩٢٢

الطاووس الأبيض : The White Peacock

تنتمي هذه القصه البسيطه الى قصص توماس هاردي لجوها الهادىء الرعوي الريفي الجميل وترسم لنا معالم القصة اللورنسية من حيث ابرازها لشخوص لورنس المميزة ، ومواقفه النموذجية ، حيث نجد فيها الشخصيات التي تسير وراء العقل ، والارستقراطي الماهر ، وحارس غابة الصيـــد ،

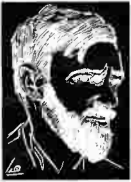

وفي القصة يحاول لورنس أن يتمسك في القيم الاخلاقية الفكتورية ويصور لنا جو العصر الكئيب وتصنعه . وعندما انتهى لورنس من كتابة قصته عرض مخطوطها على « هوفر » وكان قد استغرق في كتابتها أربع سنوات . وقرأ هوفر القصة وقال للورنس : « أن في هذه القصة كل العيوب التي في القصة الانجليزية ، ولكنك عبقري » . ونشرت القصة في أمريكا وانجلترا وكان سن لورنس ٢٥ عاما .

وتصور القصة الريف الذي نشأ فيه لورنس ـ الوديان والحقول والغابات والحقول حول ايست وود قبل أن تشوه المناجم وما حولها من قذارة الجو الريفي الجميل . ويصف لورنس الريف كرجل يملي عينيه ويحس نموه باحساس عميق ولا يحاول أن يتحاشى من مواطن القبح فيه ـ الأراضي البور والأرانب المقتولة التي تلتهم المحاصيل ، والفئران التي تتوالد في السور والمخازن والأكواخ المهجورة المهدمة والحيوانات والطيور التي تقع في المصائد والفخاخ أو التي تقتل أو تفترس .

ويسرد لورنس قصته سردا ذاتيا عن طريق ضمير المفرد المتكلم ويمكننا أن نصف القصة على أنها محاولة من جانب الراوي لتصوير حياة لورنس على أنها تحقيق للحلم الذي كان يراود والدته بشأن مستقبله . فيعيش الطفل مع والدته وأخته ويقوم برسم لوحات بألوان مائية ويعيش عيشة مثالية ، فالعالم الذي يعيش فيه عالم نظيف مريح يستلقي أفراده فيه على كراسي مريحة ويقرعون الأجراس للخدم ويرتدون ملابسهم الرسمية للعشاء . وبالرغم من أن لورنس يتحدث بضمير المتكلم المفرد فيها إلا أننا لا نحس بوجوده إلا قليلا . ويمثل « سيريل » د . هـ . لورنس في القصة وتنشأ بينه وبين جورج ساكسون صداقة متينة تصل إلى ذروتها في المنظر الذي يستحم فيه الاثنان ، ويتكرر هذا المنظر في قصص لورنس الأخرى مثل « قوس قزح » و « نساء عاشقات » وعن طريقه يحاول لورنس أن يصور لنا التوافق والانسجام الروحيين عن طريق اللمس والاحتكاك الجسدي كما في الفصل الذي أطلق عليه « المصارعون » في « نساء عاشقات » . ويتزوج جورج من امرأة غير متعلمة بعد أن فشل في الزواج

من « ليس » شقيقة « سيرل » . وتحب « ميج » زوجة جورج له براءتي وتبدأ عملية المد والجزر التي سيطورها لورنس فيما بعد في الظهور . تحمل « ميج » زوجها وتولي أولادها عنايتها ويقول زوجها « إن « ميج » لم تعد تجد في المتعة التي تجدها في الأطفال » وهذه الفكرة سيطورها سيكون لها صدى في قصصه الأخرى . وعندما يبدأ في الاهتمام به لمراهقته وحزنه بدنه يجد أنه قد تحول الى سكير محطم نفسه وزوجه وأولاده . والفصل الأخير في القصة شبه موعظة طويلة في ضد المسكرات ويبدو أن لوالدة لورنس أثرها فقد كانت تعتبر السكر من الرذائل الكبرى وكان الزوج أحد ضحاياها ولا سيما وأن الوالد في هذه القصة يموت من جراء الاسراف في تعاطي المسكرات .

والقصة قصة لشاب سباب والكتاب كتاب غطى صور فيه لورنس الحياة من حوله تصويرا حيا ولكنه لم يمارس تجاربها ممارسة فعالة ولهذا فالقصة تتكون من سلسلة من المناظر لا تربطها فكرة محورية واحدة . ومن الغريب أن الفصل الذي سالبع « الطاووس الأبيض » لا يمت الى بقية القصة بصلة . وهذا الفصل يذكرنا بالقصص القصيرة التي نجدها في القصص الطويلة التي خلفها لنا فيلدنج وديكنز وسير والتر سكوت . وتدور هذه القصة حول القسيس « اناسل » الذي تخرج في كمبردج وتسلم عمله في ابرشيته ولاحقته ابنة لم مدير الابرشية « الليدي » كريستابل » فتزوجها لكنه فيما بعد أنها سيدة زوجية لا تريد أن تنجب أطفالا . وتركها هي والكنيسة في النهاية وعيش في كوخ حقير مع امرأة فقيرة أنجبت له قطيعا من الأطفال ويعمل كحارس لغابة صيد وأصبحت « تتسلط عليه فكرة واحدة . أن المخلوقات شيء عفن مرفوض » وكان فكره أي اشارة الى الثقافة » . ويظهر الطاووس الأبيض في فناء الكنيسة الملحقة بالمنزل الكبير الذي يعمل فيه « اناسل » ويحط على تمثال حجري اللاك فوق رأس مريع ويتبرز فوقه ثم يرفع رأسه ويصرخ بصوت عال . وهذه القصة القصيرة لها أهميتها لأن فيها جذور قصة « [illegible] » في « عشيق الليدي تشاترلي » .

ابناء وعشاق : Sons and Lovers

لقد بدأ لورنس يهتم بالعلاقة بين الرجل والمرأة بسبب الفرق الكبير بين ثقافة والده ووالدته . واذا كان لنا أن نصدق لورنس ، فقد اتجهت الأم نحو أولادها لتجد كفايتها من العطف والحب والحنان والفهم ، تلك العواطف التي لم تحصل عليها من زوجها . وهذا الرأي نفسه وجود الشخصيات الحية التي صورها لنا لورنس في قصصه كلما ظهرت سلطة المرأة على الرجل . فلورنس حساس جدا ومعارضة قاطعة لأي تسلط من جانب المرأة على الرجل وكثيرا ما تدفعه هذه الحساسية الفائقة الى الدفاع عن نفسه بطريقة هيستيرية ويسخط الحس لهذا شكلا وهميا . وكان لورنس ينظر الى تسلط المرأة على الرجل ، سواء ذلك عن طريق الحب أو الحنان ، على أنه الخطيئة الأولى ضد القانون الطبيعي ، وجعله هذا الاعتقاد ينظر الى جهود المرأة في الحصول على المساواة بالرجل وكأنها مسئولة عن كل شقاء وتعاسة نجدها في هذا العالم . وقد كانت الحركة النسائية لتحرير المرأة على أشدها في أيام شبابه ، وفيما بعد أخذ يرى نفسه في صورة والده في صراعه مع أمه . وحتى بعد زواجه من « فريدا » ، وكانت امرأة قوية حادة الطبع ، استمر لورنس يعاني من هذه الأزمة . فقد كان لجهودها الجسدية الفائقة أثرها في اجتذاب لورنس نحوها ، وفي الوقت ذاته أصيب جسده الهزيل المسلول بهزة عنيفة ، واضطرب العبقري المريض ودفعه صراعه العصبي الى أن يجد فيها بديلا لأمه وامرأة يستطيع السيطرة عليها . ولم تكن « فريدا » « أما » أو امرأة يمكن السيطرة عليها ، ولم يحتمل

لورنس من هذا الزواج على راحة العقل التي كان ينشدها ولو [illegible] زوجته [illegible] دون [illegible] كان له [illegible] و حبه على العمل و عمله بطريقة مبكرة .

ونجد في هذه القصة تصويرا دقيقا لموقف لورنس من المرأة كأم وكعاشقة ، والقصة من النوع الذي يعالج حياة البطل منذ طفولته وتنتمي كذلك الى ذلك النوع من القصص الذي يعطي صورة للفنان في شبابه وفي صراعه مع العالم ، وتشبه الى حد ما قصة جيمس جويس « صورة للفنان في شبابه » . وتمتاز الرواية بتميزها بالتركيب الاستطرادي الذي تصبح فيه حياة البطل الرابطة الوحيدة بين أجزاء القصة المختلفة وحلقاتها . ويظهر التفكك في قصة لورنس ولا نظير في قصة جويس . وفي « ابناء وعشاق » يسجل لنا لورنس حياة بطله منذ ولادته ثم نراه يمر خلال سنوات شبابه بأزمات متعددة حتى يبلغ مرحلة الرجولة . ويعتبر لورنس كاتبا تقليديا حيث انه يعتمد على التسلسل الزمني في سرد قصته التي تتكون من ثلاث فصول في الغالب ، وقد حاول ان يحدد ذلك كما كتب في خطاب له لادوارد جارنت .

« ولقد أعدت كتابته مرة ثانية ، وقمت بتقليمه وتشكيله ، وملأت الثغرات التي كانت فيه ـ واقول لك ان للقصة شكلا ـ شكلا . الم اكتبها بصبر ، من عرقي ومن دمي . والقصة تتبع هذه الفكرة . امرأة لها شخصية ومهذبة تضطر الى النزول الى درجة اقل في المجتمع ، وهي ليست راضية عن حياتها . لها عاطفة نحو زوجها ، وتنجب اطفالها عن طريق العاطفة ، ولها قدر هائل من الحيوية . وعندما يشب الاطفال فهي تختارهم كعشاق ـ اكبرهم اولا ، ثم الثاني . ويضطر الابناء الى التجاوب مع الحياة وبادلوا امهم حبا بحب ـ ويندفعون قدما في هذا الطريق . وعندما يبلغون سن الرجولة يجدون انهم لا يستطيعون ان يحبوا ، لان الام كانت قد أصبحت أقوى قوة في حياتهم ، وتسيطر الام عليهم .. واذا حدث ثمة تلاق بين هؤلاء الشبان ونساء اخريات ، عانوا انقساما . ويصبح ويليام مستهترا ، وتسيطر أمه على روحه . ولكن هذا الصراع يقتله ، لانه لا يدري اين تكون حياته . ويكون من نصيب الابن الثاني امرأة تناضل في سبيل روحه ـ تناضل أمه . ويحب الابن أمه ـ كل الابناء يكرهون الأب ويغارون منه . وتستمر المعركة بين الأم والفتاة ، ويصبح الابن هو الهدف . وبالتدريج تثبت الأم قوتها ، نظرا لرابطة الدم . ويصمم الابن على ترك روحه بين يدي امه ، ومثل أخيه الأكبر ، يسلم نفسه للعاطفة ، ويحصل على العاطفة . ويبدأ الانقسام من جديد . ولكن ، دون وعى منها ، تدرك الأم ما في الأمر ، وتبدأ في الاحتضار . ويترك الابن عشيقته ويسهر على امه المحتضرة . وفي النهاية نراه عاريا من كل شيء ، يجرفه تيار الموت » .

وقد حاول لورنس ان يكتمل شكل قصته عن طريق تقسيمها الى أطوار مختلفة في تسلسل زمني مطول . وقد عالج لورنس سنوات عديدة من حياة « موريل » وسلط أنواره على علاقات معينة خاصة بالتجاذب والتنافر والمد والجزر لا النمو الطبيعي والتطور بمرور السنين ويظهر هذا التفكك في قصة « موس فرح » أيضا . ففي بعض حلقات القصة نرى في مسز موريل الشخصية الرئيسية المحورية التي تنتظم حولها باقي الشخصيات ـ والتر موريل في شبابه ثم كروح محطم ، ثم ابنها الاكبر « وليام » ومن بعده « بول » واحيانا اولادها آني وآرثر ـ وفي دورة أخرى يحتل « بول » أمامية الصورة ونراه في علاقاته بأمه وبميريام وبكلارا . وتظل الشخصيتان الرئيسيتان في صراع حتى موت الام بينما تحدث تواصل وتبادل بين الشخصيات الأخرى فتتقابل وتتلاقى خلال القصة كلها . مسز

موريل وميريام ، مسز موريل وكلارا ، ميريام وكلارا . وقد تصدى لورنس حدود الاتصال أو التلاق بين شخصية وأخرى وحمل لكل شخصية فكرة تسلط عليها .

والصراع بين الام والابن في القصـة صراع بين الثقافة والجهل ، بين الوعي العقلي والحيوية الحيوانية الغريزية ، بين الروح (العقل) وبين الحس (الجسد) . أما العلاقة بين بول ومسز موريل وبين بول وميريام فتشير بردود أفعال أخرى مبهمة ويضمن لورنس هذه الأنواع من الصراع أبعادا واسعة ، فكل فرد يحاول أن يصنع نظام ذاتيته ويحقق امكانياته بقدر ما يستطيع ويعمل على توسيع آفاق معرفته . ولا تظهر هذه المحصلات في القصة بوضوح لان القصة كانت محاولة أولى ، ولم يستطع لورنس أن يتخلص من الاعتماد بتجارب معينة والاشارة الى أشياء محددة في قصة تمثل في مجموعها ترجمة ذاتية . وعندما نصل الى « قوس قزح » أو « نساء عاشقات » تكون عنصر الترجمة الذاتية قد اختفى الى حد ما وينتقل من حيز خاص الى تصوير مواقف عالمية ، وتصبح شخوصه تجسيدا لأفكار معينة .

وتلون القصـة كلهـا رأى لورنس في الحيـاة ويتحول لورنس في بعض مواقعها من قصصي الى شاعر . ورسالته فيها تتمركز حول الفكرة القديمة في الصراع بين الام والابن وزوجة الابن وقد أعطى لورنس اهتماما خاصا لهذه الفكرة الفرودية لعقدة أوديب ويقول لورنس :

« ولكن الرجل الذى يعتبر الوسيط بين المرأة والانجاب هو عشيق تلك المرأة . واذا كانت تلك المرأة أمه ، فهو حينئذ لا يكون عشيقا لها كلية ؛ فهو يحقق لها هدفها، ولكنها لا تتقبله أبدا ، ولا تساعده على توكيد نفسه او تجسيدها ، وهكذا يفنى جسمه . والابن العاشق القديم كان أوديب ـ ومن أوديب الجديد لدينا الملايين . واذا تزوج الابن العاشق ، فهى ليست زوجته ولكنها فراشه . وستتمزق حياته الى شطرين ، وستامل زوجته فى يأسها فى أن يكون لها أولاد حتى يصبح لها منهم عشيق هى الأخرى فى زمانها » .

ويلخص لنا لورنس في هذه العبارة فكرة الصراع الرئيسية في القصة . والابن العاشق لا يستطيع أن يساعد زوجته على الاكتمال لانه متعلق بوالدته وتظل الزوجة دون اكتمال حتى تنجب اطفالا فيتحقق لها ما تريد وهكذا الى مالا نهاية . ومن التناقض الغريب أن اندماج « بول » مع امه فيه اكتمال لشخصيته وفي الوقت ذاته فيه تحطيم له ، فيه انسام لطموحه وفيه احباط له .

ومن طريق عقدة أوديب تمكن لورنس من صياغة عديد من الافكار ، ففي مسز موريل نرى مثالا للفردية التى تجد نفسها وملكاتها ، نرى امرأة بلا وجدان تحجب عواطفها وتردعها ، ويقابلها الزوج عامل الفحم ، رجل حيوى فطرى يرتبط بالأرض التى يعمل في جوفهـا روحا وجسدا ، رجل مغرم بالغناء اساطير الفرقة تضج نفسه بالحيوية في الحياة ويرقص ويشرب . ثم نراه بعد ذلك رجلا محطما مهدما يلوى من جراء روحيـة زوجتـه وتباعدها عنه نفسيا وعقليا وجسديا ويؤدي دوره في القصة ثم يختفي منها عندما تسيطر الزوجة على أبنائها . ويصف لورنس مستر موريل في أول القصة على أنه رجل ضعيف الارادة ذاتي العواطف ، وبعد ذلك نصفه عندما بدأ ينكمش تدريجيا لما فقد ثقته بنفسه وبدأ جسمه يتحطم واخذ احساسه بوجوده يضعف ، ولم يزد وزنه وبدأ يفقد قامته المستقيمة وشبيبته الصلدة واخذ جسده يتأثر بضعف كبريائه . ولا تتركه الزوجة لحاله بل حاولت أن ترفع من روحه المعنوية عن طريق التهكم والسخرية وكلما تذكرت أنها في الماضي كانت تحب هـذا الرجل يزداد حزنها ، وأخيرا تدفعه الى السكر والكذب والغش وبعد كل هذا تؤنبه لخطئه . ويصبح الزوج

غريبا ، ويتحول الى حل رجل يظهر من باطن الارض ليحتسي في المشارب ، ويقاوم الزوج ولكن رجولته تنهار في النهاية وعندما يصبح وحيـــــدا ، لا يجد من يواسيه وتخلو ذاته من الغيم ولا يجد عنده الاشباع الكافي .

ويمر الابن « بول » بمرحلة مماثلة بعد وفاة والدته ويصبح مهملا منبوذا (« المنبوذ » هو عنوان آخر فصل في القصة) ويصف لورنس الوالد المحطم بقوله : « واخذ موريل وجبته وحده ، بوحشية واخذ يأكل ويشرب في جلبة لا داعي لها . ولم يتكلم معه أحد . واحتجبت الحياة العائلية ، وانكمشت واطبق عليها السكون كلما دخل المنزل ، ولكنه لم يعر انصرافه اية اهمية » وكان رده على هذه العزلة المفروضة عليه هو مواجهة تلطف زوجته بسوقية مبالغ فيها وخشونة فظة . ويصف لورنس الزوج احيانا بلغة قاسية ويصوره على انه قد اصبح اقرب الى الحيوان المفترس منه الى الانسان .

وهكذا تطمس هذه الشخصية وتحقق الفصل الاول من الموقف الاوديبي ويفقد الزوج سيطرته على عائلته . وتتجه الزوجة الى أولادها بعد هذا الاحباط ؛ وتجد فيهم ما يعوضها عن زوجها ، الواحد تلو الآخر . وعندما تمسك بابنها الاكبر وليام يصبح الصراع في الاسرة على أشـــده ، وعندما تميل الى بول تزداد حدة الصراع ويتأزم الموقف ويتعقد .

ويجد الابن الاكبر وليام نفسه مشدودا الى « ليلي » ولكنه لا يستطيع ان يتخلص من سيطرة والدته ، وبدون وعي منه يجد نفسه يحقر من شأن « ليلي » ولا يحترمها ويتعمد الاساءة اليهــــا امام والدته لكي يعطي الأم الاحســـــاس بأن حبه للفتاة مجرد نزوة سرعان ما تزول . وتحذره الام من الزواج منها ، ويبدأ في معاناة ازمة نفسية حادة ، فهو لا يستطيع ان يتخلى عن فتاته لأنه يجد فيها متعـــة جسمانية وفي الوقت ذاته لا يستطيع أن يغضب امه لأنه كان قد تعود ، كما يقول لورنس « أن تمر الافكار كلهـا من طريق عقل أمه » ويتحطم وليام ولا يستطيع الوصول الى الاكتمال ويموت وهو في شبابه . وبعد موت وليام ، يصاب « بول » بالتهاب رئوي وتسرع اليه الأم وعندما يشفى من مرضه تتخذه بديلا لأخيه . وتتروح « بول » وينتهي الجزء الاول من القصة .

ويبدأ الجزء الثاني « بميريام » التي تظهر غريزة الأم في حبها للتملك . والحب في رأي لورنس طاقة اساسية في الحياة ولا غنى للانسان عنـــه ، ولكن الحب يعني الترابط والتلاقي بينما الحياة الكاملة في نظره لاتتحقق نفســـها الا في الفرد وحده وهكذا ينشأ الصراع بين الحياة والحب ، ويعبر عن هذه الفكرة بقوله : « ان القانون الاساسي للحياة العضوية كلها هو أن كل كائن حي يعتبر فريدا وفي عزلة تامة » ويعبر الدوس هكسلي في « عمي في غزة » عن حيرته بقوله : « فلماذا يستمر شر هذا الانفصال ؟ انفصال القديس عن القديس ، وانفصال الاشكال الطبيعية بعضها عن بعض ؟ » ويجيب : « لا يستطيع انسان ان يأكل من اجل انسان آخر ، ولابد لكل منهم من ان يفكر ويسمع ويتذوق ويلمس ويشم ويستمتع ويتوق في عزلة عن الآخرين . والرجل الطيب يعيش في عالم أقل انعزالا من عالم الرجل الشرير ، ولكنه عالم مقفل ، تماما كالذرة المغلقة . وبالطبع اذا كان لابد من أن يكون هناك وجود ـ وجود كما نعرفه ـ فلابد للكائنات من أن تنتظم في عوالم مقفلة ومعزولة كمنازلنا لابد لها أن تدرك أن الوحدة دون فوارق تصبح وكأنها لا شيء . تناقض لا مفر منه لأننا نريد أن نكون شيء ـ ا ولكننا نجد ، في الحقيقة ، أن ا ـ نصير ... » ومنطقة العدم هذه يطلق عليها لورنس كلمة « الموت » ، ومن الصعب على مخلوقه ادراكها . فالفرد لا يمكنه الوصول الى الاكتمال الا عن طريق الاحتكاك بالآخرين ، وعلى وجه الخصوص ذلك الاحتكاك بين الرجل والمرأة ، ويجب على كل فرد الاحتفاظ بجوهره . والحب عند مسز موريل او عند « ميريام » لا يعترف بجوهر الفرد الآخر ولهذا

يعني هذا الحب يمكن ما سوف يصان ولا يساعد على الاكتمال بل يدمر ويحطم الطرف الآخر . فالحب سلاح ذو حدين اذا زاد عن الحد المعقول سبب الموت ولهذا فلابد من التوازن أو من عملية المد والجزر كي يتحقق جوهر المرء .

وعندما يلتقي « بول » بميريام فهو يحبها وهو رجل محطم فقد ابرامه وطالما هو واقع تحت تأثير امه وسيطرتها فهو لا يستطيع ان يحقق الاكتمال معها أو مع اي امرأة اخرى الا عن طريق الجسد فقط . ويحاول لورنس أن يقنعنا أن الجسد لا يصير طاهرا الا اذا كانت الروح طاهرة أيضا . فالجسد وحده لا يكفي لتحقيق الذات . ونرى ذلك في العلاقة بين « بول » و « كلارا دوس » . وكذلك الالتقاء الروحي وحده لا يكفي ؛ اما الاثنان معا فيستطيعان للانسان السعادة ويساعدانه على النمو والازدهار .

وتعجب ميريام باحدى لوحات بول فيقول لها : « ان السبب يرجع الى انه لا يوجد فيها ظلال تاره ، فهي تظهر التألق والوميض ، وكأنني قد رسمت البروتوبلازم الذي يتألق في أوراق الأشجار وكل شيء ، ولم أرسم الشكل الجامد الذي يبدو لي بلا حياة . ان هذا الوميض هو الشيء الحقيقي والشكل ما هو الا قشرة ميتة . ان التألق حقيقة في داخل الاشياء . » ويحاول « بول » أن يصل الى هذا الوميض - الى هذا البروتوبلازم والجوهر الحي المتألق فيما يرسمه وفي الحياة ذاتها ، فينجح في الوصول اليه في لوحاته ويفشل في تحقيقه في حياته . فهو كالزهرة التي لا تجد تربة خصبة تساعدها على النمو بعد اقتلاعها الام ليحصد بها لنفسها ولهذا يثور « بول » على « ميريام » من أجل موقفها حيال الازهار وتحب الام وميريام الازهار لا لانها أشياء جميلة بل على انها ممتلكات ويقول لورنس في مقال له عن « [illegible] » .

« ان حب الازهار سوف يصبح فمعظم النساء تحب الازهار كممتلكات واشياء للزينة فهن لا يستطعن أن ينظرن الى زهرة ويشعرن بالعجب للحظة من دون تملكها . فاذا وجدن أن زهرة قد استحوذت على اهتمامهن ، فلابد لهن في الحال من التقاطها ، من اقتطافها . الاقتناء ! التملك ! هذا شيء جديد اضيفه الى نفسي . ان ما نطلق عليه اليوم حب الازهار ما هو الا مجرد الوصول الى الامتلاك والى الانانية : شيء عندي ، أنا ؛ شيء يزينني ، أنا . » ولهذا يثور بول على ميريام ويسألها في الحب عندما يرى زهرة في يدها : « لماذا تحصلين على الاشياء دائما وتمتصين قلوبها منها ؟ » ويترك بول ميريام لعجزه بعد أن يعلق بها ويتجه الى « كلارا » في محاولة للوصول الى الاكتمال عن طريق الجسد . وتمثل كلارا « المرأة الجديدة » في ذلك الوقت فهي متزوجة ولكنها منفصلة عن زوجها وتجد فيها بول الانوثة الناضجة والدفء الذي لم يجده في « ميريام » ويقع في غرامها لفترة ولكنه لم يستطع ان يحقق معها الاكتمال وتعود لزوجها الضعيف في نهايته . ويجد بول نفسه « كالمسوخ » بموت امه وبدون ميريام وكلارا ولكنه يرفض الاستسلام لليأس ونتركه في آخر القصة وهو يواجه مستقبله الغامض .

قوس قزح ، The Rainbow

يعتبر اسلوب لورنس في الكتابة بعد « ابناء وعشاق » ويعتبر اساسه التالي الذي تحقق المولد الثاني او البعث ويخرج لنا « بركين » في « نساء عاشقات » و « ميلورز » في « عشيق الليدي تشاترلي » و « المسيح » في « الرجل الذي مات » . وقد اتخذ لورنس العنقاء رمزا لهذا التحول الجديد كما اتخذ هيكلى الغرابة من بعده رمزا للروح التي تخرج متطهرة من رماد جسدها . ويمكن بركين من الانسلاخ

من احباطه ويصبح شخصاً جديداً مكتملاً يواجه الحياة بحيوية ، ويسير باتجاه الخلق والحياة لا باتجاه الموت .

وفي أواخر عام ١٩١٢ كتب لورنس لادوارد جارنت يقول إنه سوف يرسل إليه الجزء الأول من « الشقيقتان » والتي يحتمل أن يكون عنوانها « خاتم الزواج » ، وهي تختلف عن « أبناء وعشاق » في لغتها وفي موضوعها . وكتب له في خطاب آخر يقول « أنها تعتبر شيئاً جديداً في فن القصة » وهذه القصة التي كان عنوانها « الشقيقتان » مرت بمرحلة تغير فيها عنوانها إلى « خاتم الزواج » ثم « سفينة نوح » وأخيراً نشر الجزء الأول منها بعنوان « قوس قزح » ١٩١٥ والثاني « نساء عاشقات » ١٩١٦ ولكنها لم تنشر إلا في عام ١٩٢٠ . وقد حاول لورنس أن يبتكر أسلوباً جديداً يساعده في التعبير عن فلسفته الجديدة وكان يقول : « إني أمر بمرحلة انتقالية ... إني أكتب وكل شيء غامض في نفسي — غير منضبطة في نفسي ، ولكن ، هناك أشكال مبهمة في باطن الأرض ، أزهار يجب أن تنمو منها لربيع آخر . ولكني أكتب لأعيش ويجب أن تخرج الأزهار ، وإذا كانت الأزهار ضعيفة فسيكون على ما يرام إذا ما خرجت في ساعتها » . وفي « أبناء وعشاق » تظهر ثلاثة أنماط من الشخصيات : الأب الأمي الذي يحاول إشباع ملذاته ، والأم التي تحب السيطرة على أبنائها والفتاة الخاضعة التي تحاول السمو بروحها ولا تظهر هذه الشخوص في « قوس قزح » أو « نساء عاشقات » . ويبدو من رسائل لورنس في هذه الفترة أنه كان يعاني أزمة حادة وأنه كان فعلاً يمر بمرحلة انتقالية فمثلاً نقرأ له في رسائل متفرقة العبارات التالية :

— « لم أعد أجد السرور في خلق مواقف حية كما فعلت في « أبناء وعشاق » ... »

— « هناك شيء عميق في داخلي يحاول أن يسلخ نفسه مني ... »

— « لا تحاول أن تبحث في قصصي عن الأنا القديمة المستقرة للشخص ... »

— « أعتقد أن ما أكتبه عظيماً — جديداً جداً ، ضخمة حقيقية ، وأظنها أعمق بكثير مما وصل إليه أحد في قصصه ... »

و « قوس قزح » قصة مبتكرة جديدة في كل شيء ، فهي تختلف عن قصصه الأخرى لأنها تحاول الكشف عن أعماق بعيدة في نفس الرجل والمرأة ولم يكن لورنس يقوى في ذلك الوقت على هذا الإحساس الجديد الذي يدفعه إلى الكتابة بهذه الطريقة شيئاً . والقصة تعالج رجالاً ونساء يدخلون في دورات جديدة باستمرار وتتصل اتصالاً دقيقاً بنموهم وتطورهم . ويصور لنا لورنس في الفصلين الأولى والثانية من القصة هذا العالم الغريب تصويراً رائعاً لا نعثر عليها ونصوره فعلى حدود « داربي شاير » و « نوتنجهام » تعيش آل برانجوين في مزرعة مارش .

« كانوا يحسون بتدفق العصارة في الربيع ، وكانوا يعرفون الموجة التي لا تسكن، ولكنها تلقي بالبذور كل عام أمامها للإخصاب ، وعندما تسكن ، تترك صغارها على الأرض . كانوا يعرفون كيف تخالط الأرض السماء ، وكيف تجذب صدر الأرض وباطنها أشعة الشمس ، وكيف ترضع الأرض المطر في النهار ، وكيف تصبح عارية تحت الرياح في الخريف .. كانت حياتهم وعلاقاتهم هكذا : يشعرون بنبض الأرض وجسدها الذي كان يتفتح استعداداً لتلقي الحبوب ويصبح ناعماً غضاً بعد الحرث ملتصقاً بأقدامهم التصاقاً يشدهم كالرغبة ، ثم ترقد الأرض جامدة لا تبالي عندما تبدأ المحاصيل في النضوج .. وأمسكوا بضروع الأبقار وفاضت الأبقار بلبنها وبنبضـ

بالحياة في أيدي الرجال . ونبض دم حلمات الأبقار مع نبض أيدي الرجال . واعتلوا ظهور خيولهم وقبضوا على الحياة بين أرجلهم وربطوا خيولهم في العربات وبأيديهم على سيور اللجام سيطروا عليها واخضعوها لإرادتهم » .

أما نساء آل برانجوين فقد « كن يردن نوعا آخر من الحياة ، شيئا آخر لا يكون فرديا » كن ينظرن دائما الى الأفق المتسع ، الى خارج دائرتهن الضيقة المحدودة » .

والقصة قصة ثلاثة أجيال متعاقبة يرصدها لورنس عن كثب ويسجل تطور العلاقات المختلفة بين رجالها ونسائها . ويبدأ بتوم برانجوين الذي يقابل في يوم من الأيام سيدة بولندية اسمها ليديا لنسكي ويشعر نحوها باحساس غريب ثم يتزوجها ، ثم تتقابل ويل برانجوين وآنا وأخيرا اورسولا وسكربنسكي . ويصف لورنس لنا بدقة متناهية لحظات التقارب والالتقاء والتجاذب الروحي والجسدي التي يعقبها فترات من التباعد والتنافر والامتلاء بين الرجل الزوج والمرأة الزوجة ولهذا نجد التقابل في الشخصيات وتتضح الفروق من تعاقب الأجيال الثلاثة ومن الاستعانة الفنية بالرموز العصبية .

وتبدأ القصة بطريقة تقليدية الى حد ما تذكرنا بأسلوب جورج اليوت وتوماس هاردي ولو أنها تزخر بأسلوب لورنس وطريقته في ابراز حياة الفرد الذاتية وارتباطه بالقوى الحيوية في الطبيعة من حوله . ويختلف لورنس عن جورج اليوت وتوماس هاردي في قدرته على الانتقال السريع من الوصف الطبيعي الى الايحاء الرمزي . ويحرص لورنس في تأريخه لهذه الأجيال الثلاثة على ابراز عامل الوراثة ولهذا نجد أحيانا تكرارا مملا تفرضه عليه فكرة القصة الرئيسية وهي تحليل العلاقة بين الرجل والمرأة من جيل لآخر ، ومحاولته الوصول الى التوازن أو الاستقطاب . وكان من الضروري أن يصور لنا لورنس أن الطريق الى الاكتمال لا يأتي الا عن طريق التجربة والخطأ وفي النهاية سيتمكن الفرد من أن « يجذب الحياة الى نفسه من القوى الحيوية الهائلة المنتشرة في العالم » ولهذا فالفقرات الأولى تصور الصبي الذي ينمو فيصبح « توم عرج » .

ويجد توم برانجوين التكامل الى حد ما في زواجه من ليديا لينسكي ولا سيما وأنها من عالم غريب مجهول . وتظل الزوجة « غريبة » في هذا العالم ويظل الزوج هو الآخر « غريبا » في عالمه المظلم حتى مصرعه إثر تدفق شديد من مياه الأمطار ويموت غرقا . ويظهر ويل برانجوين على مسرح الحوادث ويقع في غرام « آنا » ويتزوجها . ويبدأ الصراع سيما بعد شهر العسل القصير وتبدأ شخصية ويل برانجوين في التكشف لنا ، فهو ليس بالرجل الرقيق ولكنه فنان مغرم بالفن المعماري في الكنائس القوطية ، ولا تشده الزجاج الملون أو النحت على الجدران والأعمدة فحسب في الكنيسة بل روح الغموض والظلام الذي تحتويه الكنيسة داخلها . فالدين بالنسبة له ليس مجرد طقوس أو قوانين خلقية بل هو تجربة عاطفية واحساس بالأزل والمطلق ولهذا يؤمن بالمعجزات ويحب الرموز الدينية . وينظر ويل برانجوين الى الكنيسة نفس النظرة التي كان آل برانجوين ينظرون بها الى الأرض والطبيعة من حولهم ، ويصف لورنس الكنيسة بأسلوب مماثل لأسلوبه في الفقرات الأولى من القصة .

« بين الشرق والغرب ، بين الفجر وغروب الشمس ، كانت الكنيسة ترقد كبذرة في سكون ، غامضة قبل الإنبات ، يكتنفها السكون بعد الموت . وظلت الكاتدرائية صامتة ، بذرة ضخمة ستكون زهرتها حياة متألقة لا يمكن تخيلها ، ففيها الحياة والموت ، وأولها وآخرها دائرة السكون » .

ولكن الزوجة لا تحترم احساس زوجها بالكنيسة ، فالمذبح باطل ، والكاتدرائية مكان محدود

يصعب على الانسان الهروب منه والانطلاق في العالم الرحب الواسع تحت السماء الزرقاء ، واقواس الكنيسة لا تماثل في جمالها قوس قزح . فاقواس الكنيسة تنطلق صعودا الى اعلى وتمثل التسامي والروحية ، اما قوس قزح فينطلق الى أعلى ثم يعود الى الارض مرة ثانية . ويرمز قوس قزح الى تحقيق كل الاشياء التي تحصل على اعطائها عالم لورنس ويشير الى الحياة الذاتية فيما وراء الوعي . اما قوس الكاتدرائية فيوحي بالاطمئنان والأمان ولا يعتبر طريقا كاملا في الحياة . ولا يعني المتعصب مثل ويل برانجوين او سكربنسكي الذى يقدس الواجب او جيرالد في « نساء عاشقات » أن يصل الى الاحساس بأهمية قوس قزح . فيجد ويل الراحة في قلب الكنيسة الذى يطلق عليه لورنس « الرحم » ولكنه فشل في تحقيق هذا التوازن بين الروح والجسد ، هذا التناسق بين العقل والشعور . كان يعتقد أن الكنيسة هي « المطلق » و عالم يرمز بالمتناقضات ، ولكنه فقد ايمانه بالمطلق وكان صوت زوجته « هو صوت الحية في جنة عدن » ويعود مع زوجته الى المنزل وهو يفكر :

« لقد كان يعتقد ان الكاتدرائية هي المطلق . اما الآن فقد شاهدها وهي تقبع تحت السماء ، ولا زال العالم الحقيقي الغامض المظلم في داخلها ، ولكنه عالم من داخل عالم آخر ، استعراض جانبي ، وكانت قبل ذلك بالنسبة له عالما وسط الفوضى : حقيقة ، نظاما ، مطلقا ، داخل فوضى بلا معنى .. لقد كان هناك حياة خارج الكنيسة . كانت هناك أشياء كثيرة لم تحتويها الكنيسة . وأخذ يفكر في الله ، وفي قبة السماء الزرقاء في ذلك اليوم . كان هذا شيئا عظيما ومطلقا . وأخذ يفكر في حطام عقيدة الاغريقية ، وبدا له أن المعبد لا يصبح معبدا كاملا الا اذا تحطم واختلط بالريح والسماء والاعشاب » .

ويعود الزوج في النهاية الى هواياته وهي النقش على الخشب وتولى الزوجة الخصبة اولادها التسعة عنايتها .

ويصل الى الجيل الثالث « اورسولا وعشيقها سكربنسكي » . ورثت الفتاة عن والدها اهتمامه بالكنيسة والدين بطريقة مختلفة . فبينما كان والدها يهتم بالمطلق المجرد في الكنيسة أخذت هي تهتم بالدين عن طريق حبها للمسيح وتحاول التوفيق بين الجسد والروح . وتقع في غرام سكربنسكي ويتركها لفترة ويعود اليها بعد بضع سنوات ويتفقان على الزواج ولكنها تكتشف انها تحبه جسديا ولا تحبه من اعماق نفسها ويفترقان . وفي نهاية القصة ترى اورسولا قوس قزح على أنه رمز للحياة الكاملة الحرة التي تجمع بين العقل والجسد ويسمو بهما الى وراء حدود العلاقات الحسية والروحية المتعارف عليها .

ان احساسات ابطال لورنس وعلاقاته في قصصه احساس فائض حوى فردى مثير كالزئبق ، فهم يحبون ويكرهون دون انذار واع منهم . وهم عندما يسيطر عليهم « غريزة الدم » وعندما تحدث هذا التلاقي يظهر « شعاع من الفهم » يصل بين الطرفين . والحياة الحقة عنده هي هذا الفهم المتصل والعيش في العالم الغريزي باستمرار . ولكن الجسم الانساني لا يحتمل الاتصال بهذه الطريقة . ان عبقرية لورنس تظهر دائما في مقدرته على وصف حالات معينة من الادراك المباشر لهذه القوى الخفية التي تحركنا وفي مواقف معينة في مناظر متفرقة في قصصه . ويظهر جمال اسلوبه عندما يكون واقعا تحت تأثير هذه التجارب الحسية والقصة العاطفية وعندئذ يتحرر الشاعر من النثر بطلعة جديدة ويكشف لنا لورنس عن عبقريته من خلال القناع الكثيف الذى يكتنف رسالته . ان ما حققه لورنس رائع جدا ولكن ليس من العسير أن يخفى علينا انه قد اهمل فيما حققه لورنس شيء ما : ان العقل ليس بالضرورة عقبة في سبيل الاحساس والاكتمال .